مات تيتو عاشت يوغوسلافيا

عبد المنعم مصطفى

. . لولا تيتو ما كانت يوغوسلافيا . . كان يمكن أن تكون أى شىء . إمارة هنا ، أو دويلة هناك . . لكن تيتو استطاع بإرادته الفولاذية أن يصوغ من ست جمهوريات وخمس قوميات وأربع ديانات ولغتين شعبا واحدا ودولة واحدة . يمثل استقرارها – بلا مبالغة – عامل استقرار هام فى قلب أوروبا . وقد كان تيتو عظيما ، والعظماء لا يصنعون التاريخ فحسب ، لكنهم يسهمون أيضا برؤيتهم المستقبلية فى صياغة المستقبل لشعوبهم وللإنسانية . . فهل ينجح تيتو فى هذا الاختبار الذى تجتازه أفكاره ومبادئه ، وتخوضه بلاده أيضا بعد رحيله ؟

فى مناظرة تليفزيونية بين الرئيس الأمريكى كارتر والرئيس السابق جيرالدفورد أثناء معركة انتخابات الرئاسة طرح هذا السؤال : فى حالة وفاة الرئيس اليوغوسلافى تيتو وتعرض أمن يوغوسلافيا للخطر ، هل تتدخل الولايات المتحدة عسكريا إذا لزم الأمر ؟ ولأن الرئيس السابق فورد كان فى مركز القرار ويعى أعباءه وتكاليفه . فقد أحجم عن إبداء استعداده لإرسال قوات أمريكية فى هذه الحالة ، أما الرئيس كارتر – الذى وصفه المراقبون وقتها بأنه يضع يده فى الماء البارد – فقد أبدى استعداده لإرسال المساعدات والقوات اللازمة للدفاع عن استقلال يوغوسلافيا .

وهذا السؤال وتلك المناظرة بين كارتر وفورد يعكسان وبصورة واضحة مدى الاهتمام الذى تحظى به يوغوسلافيا فى السياسة العالمية بحكم موقعها الاستراتيجى وموقفها السياسى الفريد ، فهى شيوعية خارج دول المنظومة الماركسية ، وهى غير منحازة وسط قارة قدر عليها الانحياز للشرق أو للغرب . وهى فى النهاية فريدة فى تركيبها السياسية فى نسيج غريب من الشيوعية واللامركزية ومن مختلف القوميات والأديان والأجناس .

وفى هذا المنعطف الخطير فى تاريخ يوغوسلافيا . حيث يغادر المسرح السياسى هناك رجل هو بحق مؤسس يوغوسلافيا ، وهو بحق أيضا علامة بارزة على صلابة الإرادة وإرادة السمو والشموخ فيها . يعاد طرح هذا السؤال الذى سبق أن واجهه الرئيس الأمريكى السابق جيرالدفورد : ماذا عن يوغوسلافيا ؟ إلى أين تمضى هى وإلى أين يمضى الآخرون حولها ؟

أولا : يوغوسلافيا إلى أين ؟

لا شك أن الزعيم الراحل تيتو قد ارسى من خلال استيعابه للظروف الخاصة جدا بالتجربة اليوغوسلافية عدة أسس يغلب عليها الطابع التوفيقى أملتها عليه هذه الظروف الخاصة ، ولعل أهم هذه الأسس على الإطلاق هو اختيار النظام الفيدرالى بعد شهرين فقط من الاستقلال . ثم التصدى لستالين مؤكدا الطريق الخاص للشيوعية اليوغوسلافية ثم إرسال مبادىء سياسة التسيير الذاتى self management ووضع أسس ما عرف بعد ذلك بالشيوعية الأوروبية . ثم الاشتراك فى بناء فلسفة عدم الانحياز مع البانديت جواهر لال نهرو والزعيم المصرى الراحل جمال عبد الناصر . وتشكل كل تلك الخيارات التى صنعها تيتو أو شارك فى صنعها الملامح الرئيسية لما يمكن أن نسميه « التيتوية » Titoism

ولكن عندما يغادر تيتو المسرح السياسى لابد أن نتساءل عن مدى إمكانية استمرار « التيتوية » وهل كانت منهجا خاصا بتيتو وحده ؟ أو أنها منهج يوغوسلافى ونتاج طبيعى للتجربة اليوغوسلافية الخاصة ؟ . . أو هى نموذج يمكن أن يحتذو حذوه الدول الأخرى سواء فى شرق أوروبا أو فى دول العالم الثالث ؟

ولأنه لا يمكن فصل التجربة اليوغوسلافية عن تيتو أو العكس فإن المخاوف التى تساور البعض

فى ابريل ١٩٤٥ فى موسكو وقع تيتو ومنالين معاهدة صداقة بين البلدين

فى شبابه .. بالزى العسكرى

مع أحد المناضلين من كرواتيا عام ١٩٣٢

داخل يوغوسلافيا وخارجها تصبح جديرة إذن بالاهتمام . ولعل وعى تيتو بهذه الحقائق كان وراء سعيه الدءوب لخلق نظام مستقر لا يبتر برحيله هو نظام « القيادة الجماعية » الذى حدده الدستور اليوغوسلاق الصادر عام ١٩٧٤ ، ويتشكل هذا النظام من جهازين رئيسين :

● الجهاز الأول : هو مجلس رئاسة الدولة ويضم ثمانية أعضاء ممثلين لست جمهوريات ومقاطعتين تتمتعان بالحكم الذاتى ويتم طبقا لهذا النظام تولى منصب نائب الرئيس سنويا طبقا لنظام التناوب الدورى فى ١٦ مايو من كل عام .

● أما الجهاز الثانى فهو : مجلس رئاسة الحزب « رابطة الشيوعيين اليوغوسلاف » ، الذى يضم ٢٣ عضوا من بينهم وزير الدفاع ممثلا للقوات المسلحة .

ومن بين أبرز أعضاء مجلس الرئاسة .

● لازار كولبيفسكى نائب رئيس مجلس الرئاسة خلال هذه الفترة التى تنتهى فى ١٦ مايو الجارى ومعنى هذا أنه سيصبح رئيسا لعدة أيام فقط ثم يليه موسيجور فانيا لمدة عام آخر ينتهى فى ١٦ مايو ١٩٨١ وهكذا .

● أما المرشح ليكون أقوى الرجال فى حقبة « ما بعد تيتو » فهو فلاديمير باكاريتش عضو مجلس الرئاسة (٦٨ سنة) وهو من كرواتيا ويعتبر واحدا من آخر قيادات الحرس القديم وتعود صداقته بتيتو إلى أيام الحرب العالمية الثانية . إلا أن المشكلة التى تواجهه هى تدهور حالته الصحية حيث يفتقر منذ عشر سنوات إلى ارتداء ملابس خاصة تعوقه عن الحركة .

المطبخ .. أو الدائرة الداخلية :

ومع أن معظم المراقبين السياسيين يرون أن فى الإمكان تطبيق نظام القيادة الجماعية بنجاح - بل إن بعضهم يرى أن ذلك ربما كان الممكن الوحيد - فإنهم فى نفس الوقت يشيرون إلى الحاجة الملحة لما يعرف باسم .. « الدائرة الداخلية » أو المطبخ الذى يقوم بتقديم النصح والمشورة للقيادة الجماعية . حيث يتم فيه بالتعاون بينه وبين هذه القيادة طبخ القرارات الهامة ، وترشح الدوائر الدبلوماسية فى هذه الدائرة الداخلية « أربعة عناصر قوية » هى :

باكاريتش عضو مجلس الرئاسة .

● ميلوس مينيتش ٦١ سنة وهو أحد صناع السياسة الخارجية اليوغوسلافية وعضو هيئة رئاسة الحزب ورئيس لجنة العلاقات الخارجية وهو بالإضافة إلى كل هذا أحد كبار فلاسفة الحزب .

● ليكولاى ليبوفتش ٦٣ سنة وهو من المقربين إلى الزعيم اليوغوسلاق الراحل . كما أنه من الرواد الذين تصدوا للنازى خلال الحرب الثانية وقد التحق بالحزب عام ١٩٣٠ كما كان من الحراس الخصوصيين للرئيس تيتو بعد الحرب ، ويتمتع بإرادة فولاذية وعقلية منظمة ومهارة تنظيمية فائقة . وقد لعب دورا بارزا فى تعزيز القدرات الدفاعية ليوغوسلافيا وبناء جيشها . ويذكر له أنه كان أحد العناصر الأساسية التى ساعدت على وضع حد للصراعات القومية داخل يوغوسلافيا فى كرواتيا عام ١٩٧١ . كما لعب دورا هاما أيضا فى إقصاء القوات المسلحة عن لعبة صراع القوى السياسية .

● أما آخر العناصر القوية فى الدائرة الداخلية فهو « ستان دولانتش » الذى أقصى فى العام الماضى من منصب السكرتير العام للجنة المركزية للحزب وذلك بسبب اعتراضه على مبدأ القيادة الجماعية ، وميل المراقبون الغربيون إلى الاعتقاد بأن دولانتش ربما كان الوريث الوحيد الظاهر لتيتو فهو « بارجماق » يبذل الجهد الوفير لتخرج أفكاره إلى حيز التنفيذ .

ويرحيل تيتو يحق منصب رئيس الدولة طبقا لدستور ١٩٧٤ ليصبح النظام طبقا للدستور هو القيادة الجماعية والرئاسة الدورية . وإذا كان هذا النظام الخاص بالقيادة الجماعية مناسبا نحاما فى وجود تيتو فإن مستقبل هذا النظام وقدرته على تجاوز مشاكل الأقليات ودعاوى التعصب تصبح محدودة . ذلك أن تيتو ربما كان هو « اليوغوسلاق » الوحيد أما الباقون فهم صربيون وكروانيون وسلوفانيون .. وهكذا فإن شبهة التعصب والانحياز لا يمكن استبعادها نحاما . كما أن كل جمهورية أو مقاطعة ستعتبر نفسها فى مقاعد المعارضة طيلة فترة حكم الرؤساء السبعة الآخرين . وقد يتجاوز الأمر حدود مجرد المعارضة . وهذا فمن المرجح أن تفرض ضرورات الوحدة والاستقرار السياسى شكلا آخر من أشكال الحكم يكون استجابة طبيعية لطبيعة التركيبة الاجتماعية والديموجرافيه للمجتمع اليوغوسلاق . ولتقل الاقليات فيه . إلا إذا ظهرت فى الأفق زعامة وطنية أخرى مثل تيتو أو إذا اختارت البلاد طريقة الانتقال السوفيتية من الستالينية المطلقة إلى القيادة الجماعية . وهو أيضا طريق حافل بالمخاطر بسبب الاختلاف الظاهر بين طبيعة النظام السوفيتى المركزى الراسخ ، والنظام اليوغوسلاق الذى تحكمه تركيبته الفريدة جدا .

وإذا كانت لتيتو خلافة فليس له حتى الآن خليفة . ذلك أن يوغوسلافيا كلها لم يكن فيها سوى تيتو واحد فقط ، وهذا فإن التحدى الذى يواجه خلافة تيتو هو تحدى صنع الخليفة النموذج إلا أنه يصبح تحديدا صعبا بكل المقاييس . فأى تيتو قادم سوف يخضع لمعايير الزعامة كما حددها واتصف بها الراحل العظيم .

والضرورات التى فرضت وجود دولة يوغوسلافيا هى ذاتها التى تفرض استمرارها . لكن ثمة مشكلات صعبة ومعقدة تجعل من المحافظة على استمرار وجود هذه الدولة أمرا صعبا لكنه فى النهاية الممكن الوحيد أو البديل الأوحد للحرب والدمار وسط القارة الأوروبية العجوز

مع المارشال الكسندر الأول للمارشال اليوغوسلافي عام ١٩٤٢

وفي عام ١٩٥٥ ذهب خروتشوف إلى بلجراد ليصلح غلطة ستالين

وكان صديقا مخلصا لمصر وللرئيس السادات

الى تنعم باستقرار نسبي منذ فترة غير قصيرة . تلك المشكلات هي مشكلة تباين المستويات الاجتماعية والحضارية والاقتصادية بين مختلف الجمهوريات . فجمهورية الصرب المتخلفة تسعى إلى بسط سيطرتها استنادا إلى كثرتها العددية وغلبة العنصر التركي عليها وسيادة المذهب الارثوذكسي فيها . وجمهورية كرواتيا تسعى للاستقلال عن الدولة الفيدرالية اعتمادا على ثرائها وتقدمها فهي موطن الصناعة والعلم والثروة . وهكذا فإن الدعاوى الإقليمية في يوغوسلافيا لا يمكن إخفاؤها وإن كان ذلك لا ينفي وجود ضمانات كافية ولو لبعض الوقت لعل أهمها :

● الجيش اليوغوسلافي الذي تحددت مهمته الأولى في المحافظة على وحدة البلاد واستقلالها الذي تبلورت داخله « القومية اليوغوسلافية » على نحو يجعل الولاء ليوغوسلافيا الموحدة دون غيرها .

● نظام القيادة الجماعية : الذي سيعمل ولو لبعض الوقت على حماية وحدة البلاد واستقلالها ، أي تحقيق المعادلة الصعبة الوحدة في تداخل والاستقلال عن الخارج

● وأهم هذه الضمانات هو تشبث كل اليوغوسلاف بوحدة بلادهم لا رغبة فيها فحسب إنما لخوف مما قد يجلبه الانقسام من مخاطر الغزو الخارجي أو الحرب الأهلية .

وللأوضاع الاقتصادية في يوغوسلافيا أثر لا يمكن إغفاله على حاضر البلاد ومستقبلها . صحيح أن نظام التسيير الذاتي الذي هو أساس البنية الاقتصادية والسياسية للمجتمع اليوغوسلافي . قد أتاح قدرا من المرونة في إدارة الوحدات الاقتصادية وكذلك في اقتصاديات الجمهوريات والمقاطعات اليوغوسلافية . إلا أن هذا النظام ذاته قد تسبب في ظهور عدد من الظواهر السلبية لعل أهمها التفاوت الظاهر في الدخول من جمهورية لأخرى . فمتوسط دخل الفرد في جمهورية سلوفينيا على سبيل المثال – يبلغ ستة أضعاف دخل الفرد في منطقة كوسوفو . كما أن المناطق الغنية . لا تقبل بسهولة فكرة تقديم المعونة للمناطق الفقيرة

ولعل أخطر نتائج تلك الأوضاع الاقتصادية في يوغوسلافيا على الإطلاق هي زيادة نعيبا الاقتصادية إزاء دول الكوميكون . فقد أصبح

مع جيوفانكا رفيق نضاله

وشرس السباحة وصيد السمك هوايته المفضلة

وال يكن الذي يهوذا الشيوعية كما وصفه ماو بالرئيس الصيني هو كوتشيه

الاتحاد السوفيتي هو السوق الرئيسية للصادرات اليوغوسلافية مما قد يتيح للكرملين أداة ضغط اقتصادية فعالة على الحكام الجدد في بلجراد.

وبينما يصل معدل التضخم في يوغوسلافيا إلى ٩٧ في المائة فإن معدل التضخم يصل إلى ٢٧ في المائة. كما يصل عدد العاطلين إلى ٨٠٠ ألف عاطل تأثروا بالتأكيد بحالة الكساد التي تسود دول أوروبا الغربية التي كانوا يعملون بها.

وهكذا فالاقتصاد اليوغوسلافي الذي يقدم لنا مزيجا فريدا من الإدارة الذاتية والاقتصاد المخطط والحر، يتمتع بمزاياها ويعاني أيضا من مساوئها. يمكن أن يكون عامل الحسم في تقرير مستقبل البلاد، فعلى ضوء قدرة القيادة الجديدة على التصدي للمشكلات الاقتصادية يتقرر مدى قدرة يوغوسلافيا على المحافظة على وحدتها واستقلالها في المستقبل القريب.

ثانيا : إلى أين يمضي الآخرون من حولها ؟

ماتت أنباء مرض الرئيس اليوغوسلافي في نيتو (٨٧ سنة) ولتدهور حالته الصحية ثم وفاته بعد صراع مع الموت دام ١١٢ يوما، موجة من القلق في الأوساط الغربية، وفي الأوساط اليوغوسلافية قبل ذلك. فتيتو هو الرئيس الوحيد القادر على قيادة السفينة إلى بر الأمان.

ماذا يحدث إذن لو مات الربان بينما تموج البحر حول سفينته بالأنواء والأمواج العاتية من كل صوب ؟ ! كان هذا هو السؤال الذي واجهه فورد وأجاب عليه كارتر ثم تراجع بعد ذلك بدعوى أنه اكتشف قدرة يوغوسلافيا على التصدي للعدوان والمحافظة على استقلالها. وإن كان وعد بتقديم المساعدات اللازمة إذا ما طلبت يوغوسلافيا ذلك. لكن السؤال نفسه قد خرج الآن من دائرة المناظرة التليفزيونية إلى دائرة الواقع حيث يتعين أن تكون التقديرات صحيحة والقرارات أصح.

وبينما انشغل صناع القرار ورجال السياسة في الغرب في حساب الخطوة القادمة للسوفيت خاصة بعد أن التهموا أفغانستان. بينما وقفوا هم مكتوفي الأيدي ينظرون في داخلهم وينظرون حولهم بحثا عن المنقذ وعن كبش الفداء.. بينما راح رجال السياسة في أوروبا وأمريكا يحسبون احتمالات التدخل السوفيتي في يوغوسلافيا ويحذرون وينبهون. كان اليوغوسلافيون يؤكدون أنهم الأحرص على استقلالهم والأقدر على حمايته.

ونقل عن أحزب ما نشرته وكالة اليونايتدبرس الأمريكية من بلجراد نقلا عن بعض العسكريين اليوغوسلاف، ذلك السيناريو الغريب الذي أثار عرض مقتطفات منه لدلالاته القوية على صلابة اليوغوسلاف وحرصهم على استقلالهم.

تيتو .. عبد الناصر .. أباء عدم الانحياز .. في بريون

طرح السيناريو : دبت الخلافات الحادة بين الصربيين الأرثوذكس والكروات الكاثوليك وأصبحت يوغوسلافيا مهددة بانفجار خطير ولكن في غياب تيتو هذه المرة. بعض الانفصاليين يطالبون موسكو بالتدخل لحماية « يوغوسلافيا الاشتراكية ». الدبابات السوفيتية تتحرك إلى منطقة الحدود اليوغوسلافية تحت غطاء جوي كثيف. المدرعات السوفيتية تخترق حدود المجر وتتجه صوب المرتفعات الشمالية للصرب.. القوات اليوغوسلافية تتراجع إلى بلجراد بينما الزحف السوفيتي مستمر.. العاصمة اليوغوسلافية محاصرة تماما بعد أسبوع واحد من المعارك.. لكن الأمة لم تفقد كل شيء. فهناك مليونا مقاتل من الميليشيا الشعبية المسلحة جيدا، وهي تتخذ الآن مواقعها وتنصب كمائنها تمهيدا في شن حرب شعبية ضد العراة.. قد تسقط بلجراد لكن المعركة تبدأ من أجل وحدة واستقلال يوغوسلافيا.

سيناريو بالغ الغرابة والجرأة أيضا.. لكن اليوغوسلافيين هم الذين وضعوا هذا السيناريو تحسبا لمثل هذا اليوم.

والجيش اليوغوسلافي الذي يبلغ تعداده حوالي ربع مليون مقاتل يعتمد في ٨٠ في المائة من تسليحه على ما تنتجه مصانعه بينما يشتري الأسلحة الأخرى المتقدمة من الشرق والغرب معا. وقد سارعت يوغوسلافيا إلى نفي ما أشيع من أنه رسالة من تيتو إلى الرئيس كارتر يوصيه فيها بحماية يوغوسلافيا من التدخل الأجنبي. وأكدت أنها قادرة على حماية استقلالها بنفسها.

ولكن هل هناك خطر حقيقي يهدد استقلال يوغوسلافيا ؟ وما هي احتمالات التدخل السوفيتي فيها ؟

وحتى نتسنى لنا الإجابة على هذا السؤال المفترض فإننا نعرض أولا لمبررات هذا التدخل ثم لمحاذيره.

أولا : دوافع التدخل السوفيتي ومبرراته :

● محاولة السوفيت إسقاط أسطورة التيتوية وهدم هذا النموذج داخل يوغوسلافيا ذاتها وخارجها.

● استغلال النزعات الانفصالية لدى البعض في يوغوسلافيا لإدعاء وجود فراغ في السلطة أو التدخل بدعوى مساندة الشعب اليوغوسلافي إعمالا لمبدأ « بريجنيف ».

● الوصول مرة أخرى إلى البحر الأدرياتيكي بعد أن رفض تيتو بصورة قاطعة منحهم تسهيلات وقواعد في موانيء يوغوسلافيا. وبعد أن خسر السوفيت منذ أمد بعيد قواعدهم في مصر والصين.

كان هوى الموسيقى وتجيد العزف على البيانو

تيتو مع ابنه ميشا (٥٦ سنة) من زوجته الأولى (السوفيتية)

فى تيرانا بسبب موقفها من النزاع الصينى - السوفيتى

ثانيا : مخاذير التدخل السوفيتى :

● الخوف من تحول يوغوسلافيا نهائيا إلى المعسكر الغربى كنتيجة للضغوط السوفيتية .

● احتمالات رد الفعل العنيف من جانب الغرب بسبب تعرض الاستقرار الدولى فى أوروبا للخطر مما يهدد بحرب شاملة .

● إن تورط السوفيت فى حرب مع يوغوسلافيا قد يثير نزعات التحرر من السوفيت داخل المعسكر الشرقى ذاته .

ولعل مقابلة الدوافع بالمخاذير تشير إلى أن السوفيت لن يقدموا على هذه الخطوة فى المستقبل القريب على الأقل ، بل إن من المتصور أن يسعى السوفيت إلى تحسين علاقاتهم بالقيادة اليوغوسلافية الجديدة وجرها إلى ارتباطات اقتصادية وسياسية ، وكما ذكرنا من قبل فإن معظم صادرات يوغوسلافيا تتجه إلى السوق السوفيتية مما قد يتيح اداة ضغط هائلة ضد الحكام الجدد فى يوغوسلافيا ، كما تمثل احتياجات يوغوسلافيا من الطاقة ورقة رابحة فى أيدى السوفيت الذين قد يعيدون النظر فى فتح البترول إلى يوغوسلافيا من جديد .

باختصار فإن الخط السوفيتى قد يتحدد فى :

● محاولة احتواء الحكام الجدد فى يوغوسلافيا .

● محاولة استغلال الانقسامات الداخلية لحساب السوفيت أو مديد العون للعناصر الستالينية فى الداخل .

أما الولايات المتحدة ودول غرب أوربا ، فقد أتاحت فترة المرض الطويل للرئيس الراحل تيتو التعرف إلى حد ما على مواقفها إزاء الوضع فى يوغوسلافيا . . فكل من واشنطن وعواصم أوروبا الغربية تخشى احتمالات التدخل السوفيتى المباشر أو غير المباشر . ولهذا فمن المتصور أن تعيد الولايات المتحدة النظر فى موقفها إزاء مسألة تسليح يوغوسلافيا ، وكذلك استكمال مشروعات الطاقة النووية فيها .

أما أوروبا فقد تعيد التفكير فى علاقة يوغوسلافيا بالسوق المشتركة التى تتحمل مسئولية حماية يوغوسلافيا من أى ضغط اقتصادى سوفيتى محتمل . . باختصار شديد فإنها ستحاول ابعاد يوغوسلافيا عن منطقة الجذب السوفيتية . كما عمدت دول التحالف الغربى بزعامة واشنطن إلى تحذير موسكو من خطر التدخل فى يوغوسلافيا وإلى محاظر ذلك على سياسة الوفاق والسلام العالمى .

وبين هؤلاء وأولئك مازالت يوغوسلافيا حريصة على سياسة عدم الانحياز ، التى تمثل ضرورة يوغوسلافية لضمان استقلال يوغوسلافيا وبعدها عن مناطق الجذب للقطبين الشرق أو الغربى . . إلى حد أنه حينما تدهورت صحة الرئيس اليوغوسلاق الراحل تم استدعاء طبيبين أحدهما هو البروفسور الأمريكى مايكل ويسكى إخصائى القلب ، والآخر هو البرفسور السوفيتى مارات كيتازيف . كلاهما انكب فوق جسد تيتو ، أو « يهوذا الشيوعية » كما وصفه الزعيم الصينى ماوتسى تونج ، فى محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه . . لكن تيتو مات وبقيت يوغوسلافيا فهل تستمر التيتوية فيها أو تتراجع ؟ ■

هكذا تيتو دائما لم يخن رأسه إلا للحلاق